الذات و الوطن في شعر الأزهر عطية قصيدة "مفكرة متطوع" أنموذجا

The self and homeland in " Al-Azhar Attiya " poems « mofakirate motataouiïe » a model

أ.عبد الرحمان برادي [1]*

جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر

تاريخ الاستلام: 2022-02-03 تاريخ القبول: 2023-03-11 تاريخ النشر: تاريخ النشر: 2023-06-08

ملخص:

تهدفُ هذه الورقة إلى إبراز قيمة أنطولوجية متجذرة في المجتمع الجزائري ألا و هي "المواطنة"، حيث تتجلى ملامحها سواء في القضايا المجتمعية الكبرى أو في يوميات الفرد و معاملاته . و لما كان الشاعر ابن بيئته، كان لزاماً عليه أن يبوحَ بذاته المبدعة بكل ما يجول في مجتمعه، فرؤيا العالم الضمني الذي يمثله تفرض عليه أن يلتزم بقضاياه بل أن يعيشها و إلا انتفت عنه صفة الشعرية. على إثر ذلك تختارُ هذه الورقة أنموذجاً شعريا من ديوان الشاعر " الأزهر عطية" و تحديداً قصيدته "مفكرة متطوع" لرصد علاقة الذات الشاعرة مع مكونات العالم الأخرى. لتخرج الورقة في الأخير بمجموعة نتائج مهمة تربط بين الذات المواطنة و النص الأدبي، و تستشرفُ مستقبل شعراء القضايا الوطنية داخل بؤرة العولمة الشعرية.

كلمات مفتاحية: الذات، الوطن، مُفكرة متطوع، الأزهر عطية، الشعر الجزائري.

Abstract:

The aim of this paper is to highlight an antological value rooted in Algerian society namely: "citizenship": the features of which are reflected both in major societal issues and in an individual's diaries and transactions. Since the poet was the son of his environment, he had to express in his own creative self everything in his society, the vision of the implicit world that he represented required him to abide by his cases and even to live them, or

* المؤلف المرسل. عبد الرحمان برادي

to lose his poetry. This paper then selects a poetic model from the poems collection of the poet Al-Azhar Attiya, specifically his poem " **mofakirate motataouiïe** " to monitor the relationship between the poet's self and the other components of the world. The paper will finally come up with an important collection of findings linking the self - citizenship and the literary text, and look to the future of the national poet causes within the epicentre of poetic globalization.

Keywords: Self, homeland, mofakirate motataouiïe, Azhar Attiya, Algerian poetry.

1- تمهيد:

لقد تشكلت عند الفرد الجزائري المستقل عن الكيان المستعمر قناعاتٌ جديدة غير تلك التي اكتسبها في مرحلة الكولونيالية المقيتة، و لا شك أن تلك القناعات قد تولدت إثر استنزاف شعوري و لا شعوري في مراحل تفاعلاته المختلفة مع مكونات وطنه المترابطة، حيث تتزايد رغبته الوطنية جموحاً كلما أذّن مؤذنٌ في الناس بشيء يدلُ على وطنه أو نادى مُنادٍ بضمير الأمة أن ينقذ الأرض التي أعطت كل شيء لذلك الآدمي.

إن استنزاف العواطف الذي نتحدث عنه هو الذي يدفع الأفراد في الأمة الواحدة إلى تبني قضية و العمل على تجسيدها و تحقيقها، فالتآلف و التكاتف و الاتحاد كلها مفردات تأتي بعد تحقيق ذلك الشعور بالانتماء إلى قطعة أرضية تتجاوز دلالة التراب إلى دلالات هوياتية و حضارية و ثقافية أخرى.

و من بين تلك الدلالات دلالة "المواطنة" التي تختفي داخل الإنسان و في أغواره، و لما كان الشاعر إنساناً حساساً كان مواطناً يحتفي باحتفالات أبناء وطنه، و يحزن لأحزانهم، يبني معهم مجدهم، و يهجو بلسانهم عدوهم. و هذا ما نجدهُ في ديوان الأزهر عطية "السفر إلى القلب" و خاصة في قصيدة "من مفكرة متطوع"، القصيدة التي كُتبت في سنوات السبعينيات حينما كان الشعب الجزائري يتحدى العالم ليُثبت إفرازات ثورته المجيدة و نتائجها، و أنه شعبٌ قادر على البناء و على المسؤولية الذاتية، و أنه خيرُ خلف لخير سلف يبني حِماه بسواعد رجاله.

لذلك تروم هذه الورقة طرح مجموعة من الأسئلة المتعلقة بثيمة المواطنة في الشعر الجزائري سنوات السبعينيات، أين تعلق القالب الشعري أنذاك بمقتضيات العصر في زمنٍ غلبت فيه الاشتراكية كمذهب و تصور للحياة.

فما هي المواطنة؟ و ما علاقتها بالشعر الجزائري؟ هل تجسدت في شعر الأزهر عطية تلك الثيمة؟ و ما علاقة البناء الشكلي للقصيدة أنذاك بالتصورات الوطنية الموجودة سنوات السبعينيات؟

2- دلالةُ المواطنة:

المواطنة بمفهومها الواسع تعني العلاقة بين الفرد و الدولة و الارتباط بها جغرافيا و تاريخيا و ثقافيا و سياسيا، كما تستعمل كلمة مواطنة كترجمة للكلمة الفرنسية " citoyenneté " المشتقة من مدينة cité و المدينة هي بناء حقوقي للمكان و مشاركةٌ سياسية، و تقابلها بالإنجليزية citizenship المشتقة من مفهوم المواطن citizen أي ذلك الفرد الذي تخاطبه القوانين و الدساتير الحديثة، و التي تؤكد على الحرية و المساواة بين الأفراد أمام القانون، بغض النظر عن الجنس أو الدين أو العرق أو الطبقة[1]. لعل هذا التعريف يشير في ضمنيته إلى علاقة أنطولوجية بين الإنسان و الأرض، و بين الإنسان و السلطة و كذلك بينه و بين الآخر الذي يتقاسم معه جغرافية المكان و حتمية التعايش و أشياء أخرى كثيرة، فالمواطنة تأخذ دلالتها أيضاً من دلالة المشاركة و هنا يقول عيسى الشماس: " إذا أخذنا مصطلح المواطنة بالقياس اللغوي على وزن (مفاعلة) أي مشاركة، فيكون معنى المواطنة تشارك عدد من الأفراد (المواطنين) في العيش معاً على أرض واحدة محدّدة، أو في وطن واحد و يشكلون مجتمعاً أو دولةً بالمعنى الحديث"[2] فالمواطنة حسب هذا التعريف تقتضي المشاركة و الاشتراك في كل جوانب الحياة و على الأرض الواحدة، و هو الشعور الذي يتسم به الأدباء و المثقفون مثلما يتصف به العامة و البسطاء، و لعل بنية الوطن و صورته المثلى لا تكتمل إلى في تكاتف جميع عناصر هاته البنية و التي تتمثل في أبناء المجتمع و مختلف طبقاته و أنساقه.

إن فكرة المواطنة في المعاجم و الكتب اتفقت على تعريف يجمعُ بين الفرد كعنصر منضبط و فعال، و الدولة كسلطة لها أدوات الحماية و المواطنة، كما جمعت أيضا الآخر الذي يتفاعل لينتج قيم المواطنة أو

قيما أخرى تفرزها حتمية التعايش. و قد عرف الشعر هذه القيم و تجسدت في نصوص الشعراء منذ الجاهلية مع المغتربين عن أوطانهم و قبائلهم، و مع الشعراء المطرودين كالذي حدث مع الشنفرى صاحب لامية العرب، الشاعر الصعلوك الذي اختار العيش مع الوحوش و الحيوانات على أن يعيش ذليل النفس مع قومه الذين طردوه. فقيمة المواطنة أو البوْح بالانتماء إلى قطعةٍ جغرافية أو نسبٍ معنوي أو قبيلةٍ ما وردت في شعر الأوائل قبل المحدثين، لكن ثيمة "المواطنة" في الشعر المعاصر تعرف التزاما كبيراً بقضايا الأمة بخلاف فكرة المواطنة في النصوص القديمة التي تعكس مرآتها وجدانية الشاعر و شعوره الآني اتجاه قضيته. لذا اخترنا نموذجا من الشعر المعاصر لنتقصى مدى تفاعل عناصر المواطنة الثلاث التي ذكرناها (الذات، الآخر، السلطة) مع القالب الشعري المعاصر و ظروف إنتاجه.

3- المواطنة في الشعر الجزائري المعاصر:

تتشكل ثيمة المواطنة في الشعر الجزائري المعاصر من عناصر أدبية تدفعها نحو العقول دون استئذان لتلج إلى الوجدان البشري فتلامس مكامن الإحساس المرهف فيه، و من بين تلك العناصر عُنصر الالتزام، أي الالتزام بقضايا الوطن و الأمة، حيث يعرفه جبور عبد النور على أنه " حزم الأمر على الوقوف بجانب قضية سياسية أو اجتماعية، و الانتقال من التأييد الداخلي إلى التعبير خارجيا عن هذا الموقف بكل ما ينتجه الأديب أو الفنان من آثار"[3] و لعل الأثر الوحيد الذي يبقى للإنسان هو العمل المادي و المعنوي الراقي الذي يعكسُ قضايا أمته، إذ أن الأدباء الكبار و المخضرمين دائما ما يقفون سدا منيعا بأقلامهم في وجه التحديات التي تمر بها بلدانهم، فذاك عبد الحميد بن باديس الذي وقف بالقصيدة الشامخة (شعبُ الجزائر مسلم) أمام محاولات فرنسة الشعب الجزائري و تغيير هويته، يقول إبراهيم لقان: ليس من المعقول أن يبقى الأديب أو الشاعر سابحاً في الخيال، غارقاً في ذاته دون أن ينصهر في واقع مجتمعه و أمته، إن الأدب و إن كان صاحبه يعبر عن ذاتيته، فلا بد أن يكون في الوقت نفسه مرتبطا بمن حوله ينبض وجدانه بهمومهم و يخفق قلبه بآمالهم. إنه الجانب الإيجابي من علاقة متبادلة بين الشاعر و المجتمع"[4]، لذلك نجد مثلا شاعراً مثل محمد العيد آل خليفة الشاعر الفحل الملتزم بوطنيته كان له موقفٌ واضح من الاستعمار و من الثورة فمن فرط تعلقه بوطنه فقد تنبأ بحدوثها في قصيدته الماتعة "رعد البشائر" حينما قال فيها:

بباتانة رعدُ البشائر لعلعا فأطرب أوراسا بها و الشلعلعا

و جادت غيوث البر كل رحابها فجادت و عادت للمبرات مرتعاً[5]

إن ثلاثية (الذات، السلطة، الآخر) تتفاوت تفاعلاتها الداخلية بحسب الوضعيات المختلفة لعناصرها، فالذات الشاعرة التي أمامنا مثلا في قصيدة "رعد البشائر" تعيش حتمية وجودية و تاريخية تفرض عليها الدخول في صراع الآخر مع السلطة، بل و التخندق مع ذلك الآخر–الذي يمثل صوت الشعب داخل البناء الأدبي– ضد الهيمنة و التعسف و الظلم، إذ تُلزم المواطنة الذات الشاعرة على الانغماس في فكره و مبتغاه ليتحقق ذلك الانصهار بين الذات المثقفة و الآخر باعتباره منبع الثورة و روحها المشتعلة.

تتفاوت وظيفة السلطة داخل النصوص الشعرية الجزائرية، إذ تحدد تلك الوظيفة قوانين تاريخية و إيديولوجية، فالسلطة التي يتصارع معها شاعر في مرحلة الاستعمار الفرنسي ستكون بالضرورة هي السلطة المستعمرة، و السلطة التي يتفاعل معها فيقبلها أو يرفضها المواطن في زمن الليبرالية، أكيد ستكون سلطة مختلفة، و مما لا شك فيه أن العلاقة الثلاثية التي ذكرناها و التي تعكس لنا مفهوم المواطنة لدى كل مبدع، يمكن أن تقفز من مفهوم الصراع إلى مفاهيم أخرى كالتكامل و التوافق، و بالتالي ليست كل النصوص الشعرية التي تتحدث عن ثيمة "الوطن و المواطنة" قائمة على صراع بين العناصر الثلاث التي ذكرناها.

لعل الكلام عن "المواطنة" يقتضي منا الحفر في أساليب التعبير عن الوطن، هل كانت أسالیباً تميلُ إلى الوضوح في التركيب و اختيار الألفاظ، أم أن الغموض و اللب داخل المستوى التركيبي و الدلالي كان هو ديدنُ الشعراء و مقصدهم، تقول أمينة بلهاشمي: " لقد جعلت الحركة الشعرية و اتجاهاتها الجديدة في الجزائر من الرمز الغامض دلالات موحية معبرة عن قضايا الوطن و الإنسان، مبتعدة عن الغموض مهتمة بإيصال الفكرة أكثر من ابتداعها لنماذج متعصية الفهم"[6] فالرمز كان هو الشيفرة التي تلعب داخل ذلك الثالوث المغلق، ثالوث الذات و الآخر و السلطة، فأبو القاسم سعد الله مثلاً في قصيدة "طريقي" لم يُبن عن دلالة هذا الطريق حيث يمكن للقارئ أن يكيفه كيفما شاء، طريق سياسي ام ديني أم هي علاقة إنسانية بين أصدقاء تمخض عنها هذا الرمز؟ أم أن الطريق هنا هو ابتعاد عن عاطفة ما و الهروب نحو عاطفة أخرى أشد ألماً، خاصة حينما يقول:

يا رفيقي

لا تلمني عن مروقي

إذ أنا اخترت طريقي

فطريقي كالحياة

شائك الأهداف مجهول السمات

عاصف الأرياح وحشي النضال

صاحب الشكوى و عربيد الحيال.[7]

تقترح بلهاشمي[8] أن تكون دلالة الطريق هنا هي دلالة الوطن أو الانتماء، لذلك فإن الرمز هنا حاول أن يغطي على الدلالة الحقيقية له، أو لنقل أنه قفز بمعنى الوطن من دلالته القارة في نفسية الآخر (الشعب) إلى دلالة اليوتوبيا- المدينة الفاضلة- التي يطمح إليها الشاعر.

و في مثال آخر أكثر اختلافاً نجد الشاعر عز الدين ميهوبي قد صدّر لنا رمزية مختلفة للوطن، حيث ينتقل كما ينتقل التشبيه البليغ إلى الاستعارة المكنية، وتتحول صورة الوطن من المعنوية السائرة في قلوب الناس إلى المادية المشخصنة، و ذلك في قوله:

بلادي التي علمتني الكتابة بالدم

في أضلع الشهداء

أغلقت بابها

أنكرت-لحظة الموت- أحبابها

و انتمت للدماء

ألبست ناسها سترة من عزاء

لم تجد وطناً غير صمت الزمن

صرخت ملء فيها: أعيدوه لي..

أو أعدو لقلبي الكفن؟[9]

إن تحويل الوطن إلى إنسان هو صورة أخرى من صور الحداثة الشعرية التي أضحت تميل إلى التجسيم في تعاملها مع الجمادات و الأشياء و التصورات المعنوية، و لا شك أن للتجسيم جمالية خاصة لقدرته على تقريب المعاني و توضيحها عن طريق نقل الشبه من صورة إلى صورة، تقول حفيظة بن مزغنة:" في هذه الصورة تتجلى أغلب مظاهر التشخيص حيث يتحول الوطن إلى إنسان، يعلم و يغلق الأبواب و ينكر (علمتني، أغلقت، أنكرت، ألبست، صرخت) إنها علامات تشخيصية مباشرة أراد بها الشاعر تصوير الوطن في صورة إنسان، إنه عالم حي تتقاسم فيه الأدوار مجموعة (الأفعال)، تؤدي به دلالات مختلفة"[10] و لعل هذا التجسيد يخدم أفق التلقي حيث ينقل لنا الصورة في شكلها المبسط، و تصبح على إثر ذلك صورة الرمز واضحة و معايشة للواقع.

إن التجارب الشعرية "المواطناتية" التي مر بها الشعر الجزائري تختلف كيفيات تصديرها و تقديمها للمتلقي، لكنها تجتمع عند نقطة واحدة و إن اختلفت في الأسلوب و الأدوات الشعرية و المضامين، تلك النقطة التي تعد بؤرة التوهج و التي لا يختلف عليها اثنان، إنها نقطة الانتماء إلى هذا الوطن، فمهما سردنا من تجاربِ عثمان لوصيف مع الطبيعة و الوطن و تجليات ذلك في شعره، و استخدامه للمرأة كمعادل موضوعي للوطن في أكثر من موضع، و الإيماءات السياسية للأخضر فلوس في قصيدة "خلا لك الجو فبيضي و انعقي" فلن نفي حق الشعر المعاصر حقه من الجرد و الاستقصاء في ثيمة المواطنة و قضيتها السرمدية.

4-المواطنة في ديوان "السفر إلى القلب" للأزهر عطية:

يطرحُ هذا المبحث-بعد تدعيمه بأرضية نقدية سبقته- مجموعة من الأسئلة تُفرزُ حتمياً من الأسئلة السابقة، و هي:

أ- من هو الأزهر عطية؟ و ما هي ظروف إنتاج ديوانه "السفر إلى القلب" و قصيدته " من مفكرة متطوع؟

ب- هل تجسدت في شعر الأزهر عطية ثيمة المواطنة؟

ت- ما مدى انصهار المكونات الثلاثة للمواطنة (الذات/ الآخر /السلطة) في قصيدة "مفكرة متطوع"؟

4-1- الأزهر عطية، الشاعر المناضل:

الأزهر عطية روائي وشاعر من الجزائر من مواليد 1948، بولاية قالمة ومقيم بمدينة سكيكدة ليسانس في الأدب العربي من جامعة قسنطينة اشتغل معلما ابتدائيا، ثم موظفا إداريا، ثم أستاذا في التعليم الثانوي لمادة اللغة العربية وآدبها. للأزهر عطية كتابات إبداعية شعراً و نثراً منها ديوان السفر إلى القلب سنة 1984 و رواية خط الاستواء في 1989، وفي المسرحية: تمرين في الشطرنج وفي النقد: متاهات السرد (رأي في التجربة الروائية) و غيرها من الإصدارات. يقول عنه الشاعر و الأديب و الصحفي علي بوزوالغ " رجل متأمل، يحمل ملامح الفيلسوف، يأسرك بحركاته ومشيته وكلامه الذي ينم عن وعي كبير بالحياة وشؤونها، لا تراه إلا مبتسما، يزرع الحب بين الأصدقاء، لا مكان للعداوة والبغضاء في قاموسه النفسي، لا يكترث للصراعات والمشاحنات التافهة التي يحتفي بها هذا الجيل من الكتاب... رجل مارس السياسة والعمل الجمعوي في مرحلتي السبعينيات والثمانينيات، ورفض العديد من المناصب التي عرضت عليه، إيمانا منه بأن الكتابة ستعوضه عن كل شيء، إنه الروائي الأزهر عطية، هذا الزاهد المتعالي عن الأضواء والشهرة، نذر وقته للكتابة، متفرغ لمعانقة الحرف، قليل الحضور في الملتقيات الوطنية لأنه مؤمن بأن الكاتب الحقيقي يعلن حضوره المستمر بأعماله الجديدة التي تكون محل اهتمام الدارسين، فهو غائب عن عديد الملتقيات بجسده لكنه حاضر فيها كنص."[11] و قد كُتبت هاته الكلمات من صديق الشاعر الذي تابع مساره الإبداعي في مقالٍ صدر في جريدة النصر، أين يُرافق صاحب المقال القارئ عبر مطباتٍ أنطولوجية في حياة الأزهر عطية، و التي عرفت تحولات انعكست على نصوصه، فمن زمن اليسارية الاشتراكية إلى الانفتاح و الليبرالية نجدُ الأزهر عطية يراقب من بعيد و يُخرج قلمه في الوقت المناسب، فما الذي باح به الشاعر المناضل في زمن الاشتراكية التي كُتب فيها ديوانه، و ما هي ظروف كتابته و كتابة قصيدة " من مفكرة متطوع"؟

4-2- ديوان السفر إلى القلب، الظروف و الانعكاسات:

نُشر ديوان السفر إلى القلب[12] في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، و قد نشرته المؤسسة الوطنية للكتاب العمومية الجزائرية، الديوانُ الذي يحوي مجموعة من القصائد الوجدانية التي يعكسُ عنوانها سفراً تراجيديا إلى قلب الشاعر، فعناوينٌ مثل "تذكر" و "أحزان مسافر" و "من مفكرة متطوع" كلها تحكي نوعاً من النوستالجيا التي تُعلن فرط الحنين إلى زمن مضى، و لعل تسمية الديوان بهكذا عنوان هو جمعٌ و اختزالٌ لتجارب مختلفة جمعها الحنينُ إلى مركز الأحاسيس و المشاعر، هو ذلك القلب.

أما عن ظروف الكتابة فقد امتدت من سنوات السبعينيات، أي الفترة البومدينية إلى السنوات التي اقتربت من الانفتاح الحزبي أي السنوات الأخيرة للمعسكر السوفياتي، فحسب المقال الذي كتبه علي بوزوالغ صديق الشاعر أو لنقل زميله المعاصر له، فإن الشاعر "مارس السياسة والعمل الجمعوي في مرحلتي السبعينيات والثمانينيات، ورفض العديد من المناصب التي عرضت عليه"[13] و مما نلاحظه في نصوصه الكثيرة تعلقه بالأرض و بالوطن و مناجاته للطبيعة في أكثر من موضع. و قد لاحظنا أيضا أن ظروف نشر الديوان قد قاربت نهاية الثمانينيات، و هي الفترة التي سبقت المرحلة المريرة في الجزائر، و كأني بالأزهر عطية يقدم نصيحة في شكل ديوان يبكي فيها طللاً لن يعود و مجداً غابراً ذهب مع الفترة البومدينية.

4-3 قصيدة " من مفكرة متطوع " الأسباب و الدواعي:

تتوسط قصيدة "من مفكرة متطوع"[14] الديوان الشعري المذكور آنفاً، و تتجلى في جماليتها حينما تُفتتحُ بعبارة " إلى كل الفلاحين و شهداء الأرض في بلادي..." افتتاحٌ وُجه إلى فلاحٍ وافته المنية و لكل من سار في طريقه يبتغي خدمة الأرض و من ثم الوطن. حيث يعود سبب إنشاء هذه القصيدة إلى زمن الثورة الزراعية التي أطلقها الراحل هواري بومدين. حينها تجند الفلاحون و المزارعون، و المثقفون و المعلمون، و الجنود و المدنيون لثورة أخرى تُثبت وجودهم و تؤكد نتائج ثورتهم المجيدة لخدمة الأرض، بشعار رنانٍ أنذاك " الأرض لمن يخدمها؟"، و قد أهدى الشاعر الأزهر عطية قصيدته هذه لجميع الفلاحين و خاصة الشهداء منهم. و مما نستشفه من القصيدة أن هنالك علاقة وطيدة كانت تجمعُ الأزهر عطية-الذات الشاعرة- الشاب ذو الثلاثين سنة، و المتطوعُ في شعاب الأرض و جداولها، مع

الفلاح الذي يمثل الآخر المتفاعل مع القضايا الوطنية و الذي يحتاج إلى المثقف كي يعلمه و يعلم أبناءه، و الذي يمثل التراب و الأرض، صاحب الوجه الخشن و الملامح البريئة، الذي يعطف على المعلم بصينية القهوة و على أصحابه بالحصير و الشعير، ذلك الفلاح الذي لا يفهم الشعارات الكبرى لكنه يفقه حب الوطن أكثر من أي شيء آخر، ذلك الفلاح يموت لتعيش الأرض، و لتنفطر مشاعر الأزهر عطية- الذي فقد خليل الوطن و صديق الأرض وصانع البهجة- وتنتجَ لنا هذه القصيدة " ساكنا صرت بقلبي. كجراحات العمر ".

4-4 ثيمة المواطنة في قصيدة " من مفكرة متطوع"

تتجلى ملامحُ المواطنة في قصيدة " من مفكرة متطوع " في العنونة ابتداءً، فالعنوان يعكسُ قدرة رهيبة على اختزال المشاعر، و هو هنا يختزل أمرين : الأول هو الذاكرة الشاعرة التي تتجلى في كلمة "مفكرة" أي الأجندة الخاصة بالأشخاص يدونون فيها يومياتهم، أما الثاني فهو فعل التطوع ذلك الفعل الإنساني الاختياري النبيل، الذي يعكسُ لنا حقبة زمنية صار فيها التضامن و التراحم الاجتماعيين شكلاً من أشكال تحضر الشعب الجزائري أنذاك، و قد ينبعث مفهوم التطوع في ذلك الزمن -أي سنة كتابة القصيدة 1948- من إيديولوجيا الثورة المؤطرة لبنية المجتمع، و التي أصبحت حديث العام و الخاص، فمن ثورة مسلحة ضد المستعمر إلى ثورات اقتصادية و صناعية و زراعية ينتقل المجتمع الجزائري بها من أنطولوجيا الحرية إلى حتمية البناء، و قد نصت الدساتير بعد الاستقلال على ضرورة مشاركة جميع أبناء الأمة في المدينة و الريف في ميثاق الثورة الزراعية، و لتُضرب النواقيس مُعلنة قدوم جيوش من المواطنين يبتغون خدمة أرضهم و تئز أكتافهم أكتاف إخوانهم من الفلاحين دون أن يظلم أحد و بالتساوي و العدل يتحقق الربح و تجني الطبقات العاملة الثمار، جاء في الميثاق: " الأرض ملك لمن يخدمها يخدمها، و لا يملك الحق في الأرض إلا من يفلحها و يستثمرها"[15] أي أن استغلال الإنسان لأخيه الإنسان قد طُوي زمنه ، وأن الخماسة سيُقضى عليهم.

لقد آمن الشعب الجزائري أنذاك بالثورة الزراعية و ساهمت كل أطياف المجتمع في دفع عجلتها، فعلى الرغم من العراقيل الكثيرة التي تعمل على منع تطبيق الثورة الزراعية خاصة من طرف الملاك الكبار أنذاك، إلا أنها

واصلت دربها لما لها من مناصرين ساهموا في تحقيق سمو أهدافها عن طريق التطوع، حيث شارك عشرات الآلاف من الشباب الثوري و العمال و الطلبة و النسوة في الحملات التطوعية أياما و شهورا، ينشرون قيم المواطنة بين الفلاحين في مسيرة الوعي و طريق البناء القومي.

ساكناً صرت بقلبي كجراحات العمر

غائبٌ أنت و تأتي كلما عاد القمر[16]

تبدأ القصيدة مُفعمة بحديث القلب الداخلي، حيث يتذكر الشاعر مفجوعا جراحات عمره، و يمر عليه شريط الذكريات المليء بالأسى و الأحزان. لقد صارت صورة الفلاح ذكرى أليمة، و صورة – الآخر- بالرغم من الفروق الثقافية متجذرة في القلب حد التوطن، و بالرغم من غيابه إلى أنه يأتي حينما يحل القمر، هذا الأخير الذي دام بين الأصدقاء و المحبين منارةً يتغنون بها في لحظات تسامرهم و توادهم، و هو بالرغم من مغادرته لهذا العالم إلا أن ذكراه المشرقة تتجلى في نورانية القمر.

إن ثلاثية الأنا و الآخر و السلطة في هذه القصيدة يحتكر فيها العنصران الأول و الثاني بنية القصيدة كلها، لأن الحوار في القصيدة هو حوار مونولوجي ينطلق من النقطة "أ" ليصل إلى النقطة "أ'"، فالنقطة الأولى تمثل الذات الشاعرة أما الثانية فتمثل روح الفلاح الذي أهديت له هاته القصيدة، و بالرغم من أن السلطة هنا التي تؤطر عملية التطوع لا ذكر لها إلا أنها حاضرة كدافع معنوي لعملية المواطنة التي يمارسها المواطنون، و لعل النموذج التالي يوضح ذلك بشكل جلي:

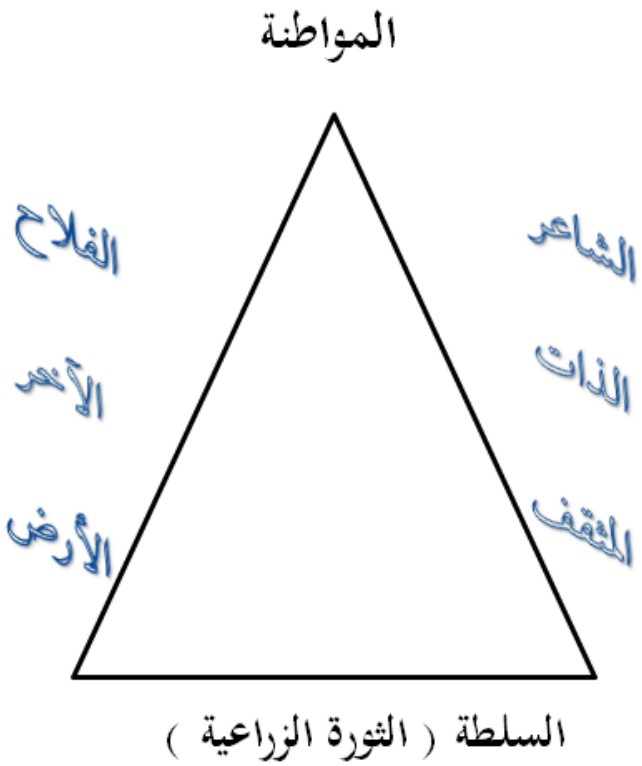

لعل الفراق لم يكن فراق شخصين فقط، بل كان فراق رجلين كان كل واحد فيهما يرى الآخر وطنا له، يحكي همومه و يضحكه و يجالسه و ينادمه، كان الواحد منهما ينتعش برفقة الآخر لأنهما يحملان هماً واحداً، هو همُ البناء و هم الأرض التي تجلت روحها في القصيدة المعبقة برائحة التراب، فمنعشا كان المساء و مفرحا كان اللقاء، و هو لقاء التطوع و العمل، و لقاء الأرض و الأحبة، يقول الأزهر عطية مستأنفا مسرديته الشعرية:

" مُنعشاً كان المساء

مُفرحاً كان اللقاء

زارني يوماً و كان

متعباً كان

و خجولاً مثلما كنت عرفته

و جلسنا

و مشينا و ضحكنا

و تحدثنا كثيرا... و كثيراً

عن تفاهات الزمن

ثم قمنا و ارتحلنا

بعد أن غاب القمر "[17]

يصور الشاعر في هذا المقطع لقارئه مجموعة من الأحاسيس التي دارت بينه و بين صديقه الفلاح، و لعله يمهد لصورة اليوم الذي يلاقيه فيه، مصوراً مدى بساطته و تواضعه، ولعل تواجد لفظة "القمر" في "عاد القمر" و "غاب القمر" لدليل واضحٌ على وجود رابط زماني بين القصيدة و ميقات حدوثها و نفسية الشعر، و لماذا ذكر القمر، دون أن يشير إلى الشمس، إنه يشير إلى الليل الحالك الذي لا قمر فيه، و الغروب ميقات المغادرة، أين يغادر كل فلاح أرضه.

تشتعل جذوة المواطنة في المقطع الثاني، أين تلامس إحساس نوستالجيا الفقد بتكرار الفعل الدال على الآخر "كان" خمس مرات، و بتصوير المواطن الفلاح في صورة المحارب الأسطوري الذي لا يأفل نجمه، و ذلك حينما يقول:

" عائدٌ من حقله بعد الغروب

كان يأتي متعبا كل مساء

كان يأتي

بعد أن طاف الشمال

بعد أن طاف الجنوب

مثلما يأتي المحارب

كان يمشي

كان يعمل

كان يضحك

كان يهوى كل شيء

يأكل الخبز شعيراً

يفرش الأرض حصيراً

كجميع الفقراء"[18]

تتلاحمُ في هذا المقطع ثنائيةُ (الأنا- الآخر) دون أن تلتفت إلى عنصر موضوعي مغاير، فالهو أو الآخر يطغى على ضمائرية المقطع دون ينبس ببنت شفة، إن الذات الشاعرة مُعجبة بصنيع هذا المحارب الذي جعل الأرض مكانا لتسابيح النهار، و ميقاتا للطواف و العمل. إن الشاعر بعجائبية قريحته ينتقل بين الأفعال الماضية و المضارعة بطريقة تثبت التفاعل بين ماضي اللقاء و حاضر المفكرة التي بحوزته، فهو في قوله: (كان يمشي، كان يعمل، كان يضحك، كان يهوى كل شيء) ثم (يأكل الخبز شعيرا، يفرش الأرض حصيرا) تتفاعل بين الماضي و المستقبل الصور و تمر على جراحات العمر دون استئذان، معلنة غياب القمر.

في المقطع الرابع تتجسد شخصية الآخر في لغة الشاعر، فيأخذ زمام الحرف ليعانقه و يقول:

" قال لي يوماً و كان

متعباً مثل الزمان

صوتكم، هذا الذي أسمعه

وجهكم هذا الذي يأسرني

قلبكم هذا الذي يمنحني عطفا

و حُباً، و حناناً، و سلاماً

علموني كل شيء.

ثم ماذا؟

ثم ماذا؟

أرضنا هذي التي تمتد شرقاً

أرضنا هذي التي تمتد غرباً

و شمالا

و جنوبا

أرضنا هذي التي أعطت كثيراً

امنحوها ما تشاء

و اعمروها من جديد."[19]

تنصهرُ ثيمة المواطنة في هذا المقطع في وجدان الفلاح، أين تتحول الذات الشاعرة إلى معادل موضوعي تنقل الأحاسيس من وجدانية الانتماء إلى الأرض و بركانية المدلولات التي تقبع في وجدان الآخر إلى دال الشعر و قوة اللفظ، فيسكنهُ كما يسكنُ الجني الإنسي، و دليلُ ذلك ما يقوله في أول القصيدة حينما يعترف قائلاً "ساكناً صرت بقلبي"[20]، فبعد أن يُفصح الفلاح عن مدى امتنانه للمثقف، يُعرب له عن شكره لتوعيته و تعليمه له تلك القيم النبيلة التي أسست لها الثورة، يقول فتحي هلال عن إحساس الانتماء هذا : " إنه الشعور بالولاء للوطن و للقيادة السياسية، التي هي مصدر الإشباع للحاجات الأساسية، و حماية الذات من الأخطار المصيرية"[21] و كما أسلفنا سابقا، فإن كرونولوجيا الأحداث هي التي تدفع بالمثقف أن يندفع خلف الحدث، و أن يساير الطريقة التي تجري بها المجريات من حوله، و ما على الآخر الذي ينتظر بلهفة إذن السلطة و الذات إلا أن يذهب إلى الميدان فيملأه حبا و حناناً و عملاً و سلاما.

تتوقف القصيدة عند رمزية هامةً جداً، و هي رمزية القول و العمل، أي أن أكثر الناس في جميع الأزمنة يقولون ما لا يفعلون، و هو ما يفرزه حوار الأنا/ الهو في القصيدة، فدون تريث يقول الفلاح " علموني كل شيء... ثم ماذا؟" و هنا دلالة واضحة على أن لا مهرب من تجسيد ما تصبو إليه الأمة، و هو الطفرة في مجالات عدة و من بينها خدمة الأرض و الجني منها، و لا مجال أيضا للقول دون عمل، و للتنظير دون تطبيق، و للكلام دون تجسيد، و أنه لتحقيق ثيمة الوطنية و المواطنة يجب أن نمنح هاته الأرض نفس

الحب الذي نمنحه لأنفسنا و لأبنائنا و لإخواننا، يجب أن نَعمُرها من جديد لتتحقق بذلك قيم الثورة المبجّلة.

في المقطعين الأخيرين من قصيدة " من مفكرة متطوع " تنفجر من بين الحروف الشعرية دلالة الفقد، تلك الدلالة التي ما فتئت تتكرر في أكثر من قصيدة قرأناها للأزهر عطية، و خاصة حينما يستعمل دال الوجع "آه"، فيقول:

" قلت آه يا رفيقي"[22] في قصيدة " من مفكرة متطوع " ثم في قصيدة "ما كان للزين و ما سوف يكون" يقول:

"قلت شيئًا يشبه الآه..

ثم شيئا ردد القلب صداه..

وطني يا وطن القلب الكبير

أنت مثلي، متعب القلب تسير.." [23]

فلهذا التكرار دلالةٌ ارتدادية في نفسية الذات الشاعرة، إذ يقول عبد القادر شارف عن الشاعر " أنه حينما يعمدُ إلى اصطناع مثل هذه الامتدادات التكرارية المتتالية في نصوصه الشعرية تقريبا، إنما يجب أن يبتغي من وراء اصطناعها أن يعبر عن بركان متأجج من الآهات المنبعثة من صدر مهموم، ليمتد هذا التكرار إلى أقصى مدى ممكن من الاندفاع و الانتشار حتى يصل إلى الحيّز القابل للاستقبال"[24] فتكرار الآه في تراتبية قصائد الأزهر عطية إنما هي امتدادٌ لسفره إلى القلب ، و هو العنوان الذي وضعه و ارتضاه لديوانه. القلبُ الذي امتلأ حزناً لصديق راحل، و حبيب مسافر، و فرصة عمر ضائعة، و مجد أمة غابر.

بعد أن تتحسر الذات بلفظ "الآه" على ما وقع للآخر، تستذكر برمزية بالغة ما وقع للفلاح أو كما تسميه "الرفيق" و تستعمل رمز البحر أو الإبحار، تلك الرمزية التي دائماً ما استعملها الشعراء :

" قلت آه يا رفيقي

كيف تُبحر

أقبل الصبح جميلاً

فتمهل لا تسافر"[25]

إن رمزية "البحر" أو "الإبحار" في الوعي الجمعي لها معانٍ كثيرة، لكن من بين أبرز المعاني لها معنى الفقد، حيث يلتقي البحر مع الموت في معنوية الفقد، و تتضافر المشاعر الإنسانية في هيجان غير منقطع حينما يتم ربط البحر بالموت، فالموت يأخذ و البحر كذلك، يقول الشاعر مؤكداً:

" غير أني فقدته

أبحر اليوم بعيدًا

يمتطي سرج السلام

و مشينا خلفه

و سنمشي خلفه

و سنمشي... و سنمشي

و سنبكي كلما عاد القمر."[26]

لقد تلاشى الصديق كما يتلاشى ضوء القمر، و مشى مبتعداً دون أن يترك الضوء الذي يهدي إليه، إنه نهاية عهد مواطن قال للأرض ذات يومٍ "لبيك" فكان أخاً للمثقف و داعماً حقيقياً لعجلة التنمية و التطور و البناء، يقول و يعمل، يمشي و يركض اجتهاداً، يؤمن بالقضايا العادلة و يؤسس لغد أجمل.

5-ختام:

لقد تشكلت قيمٌ كثيرةٌ في قصائد الأزهر عطية، قيم الحب و الوفاء، و قيم المواطنة و الدفاع عن الأرض و الوطن، إلا أن القيمة التي تستظل تحتها كل هاته القيم هي قيمة "الأدب الملتزم"، فشتان اليوم بين تلك القيمة السابحة في ملكوت الفضيلة، و أدب اليوم الذي أضحى جلّه مقيتا يدعو إلى جمالية الفاحشة، أو التغني بالمتعة، أو التفنن في وصف الرذيلة، و انطلاقاً من هذا المبدأ نرى:

أ- أن على المهتمين بالثقافة الالتفات إلى أولئك الشعراء الذين يحملون هموم الإنسان، و الإنصات إليهم، لعل في شعرهم نقداً بناءً، و لعل أولي الأمر يجدون في النهر (الشعراء) ما لم يجدوه في البحر.

ب- إن الشاعر الذي لا يقف في مساره الإبداعي عند قضايا وطنه، هو شاعرٌ لم يوفق إلى حد كبير في تجربته الشعرية، بيد أن نداء الوطن هو نداء الشاعر بوصفه سلطان الحرف و مالك الكلمة في المجتمع.

ت- إن شعر المواطنة هو امتدادٌ لشعر الثورة، و إن القصيدة الوطنية المندفعة تُفرز الكثير من النقاط الإيجابية، إذ أنها تجمع الشعوب في المحافل و تُدّوي شاهقةً ترنو التأثير في الجماهير الكبيرة، و تجمع و لا تفرق، و تدفع و لا تجذب، و تحمل الأفئدة إلى مكارم الأحوال و تزكية النفوس.

ث- يعد الأزهر عطية واحداً من الشعراء الأفذاذ الذين قل قلمهم، و فُقد أمثالهم، فعطية هو شاعر الوطن بالدرجة الأولى، و هو شاعر القلب الذي سافر إلى قلوبنا جميعاً، و هو شاعر الزمن و شاعر القمر.

6 – قائمة المراجع:

[1] عبد الجليل أبو المجد، مفهوم المواطنة في الفكر العربي الإسلامي، افريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص: 11

[2] عيسى الشماس، المجتمع المدني "المواطنةُ و الديمقراطية"، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، 2000، ص: 39، 40

[3] جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص: 31

[4] إبراهيم لقان، قضايا الالتزام في الشعر الجزائري الحديث، محمد العيد آل خليفة، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد 44 العدد 02، جامعة قسنطينة الجزائر، ص: 80

[5] غرابي غنية، صدى الثورة التحريرية في الشعر الجزائري الحديث، حوليات الآداب و اللغات، المجلد 05، العدد 12، جامعة المسيلة، الجزائر، ص: 191

[6] أمينة بلهاشمي، الرمز في الأدب الجزائري الحديث، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، الجزائر، 2010، ص: 15 و 16

[7] المرجع نفسه، ص ن

[8] المرجع نفسه، ، ص ن

[9] حفيظة بن مزغنة، الصورة الفنية في شعر عز الدين ميهوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بسكرة، 2005، ص 81

[10] المرجع نفسه، ص ن

[11] علي بوزوالغ، الروائي الزاهد الذي يعيش في الكتابة، (مقال)، جريدة النصر، العدد: 12729، قسنطينة، الجزائر، ص: 18

[12] الأزهر عطية، السفرُ إلى القلب (شعر)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1984

[13] علي بوزوالغ، الروائي الزاهد الذي يعيش في الكتابة، م س، ص: 18

[14] الأزهر عطية، السفر إلى القلب، ص: 65

[15] سهيل الخالدي، الثورة الزراعية بين الطموح و الإنجاز، مجلة الجيش، العدد 94، جانفي 1972، ص: 4

[16] السفر إلى القلب، ص: 65

[17] المرجع نفسه، ص: 65 و 66

[18] المرجع نفسه، ص: 66 و 67

[19] المرجع نفسه، ص:68

[20] المرجع نفسه، ص: 65

[21] فتحي هلال، تنمية المواطنة، مركز البحوث التربوية بوزارة التربية و التعليم، الكويت، دولة الكويت، 2000، ص: 25

[22] المرجع نفسه، ص: 68

[23] الأزهر عطية، قصيدة "ما كان للزين و ما سوف يكون" ، معجم الشعراء، موقع مؤسسة " عبد العزيز سعود البابطين الثقافية"، يوم الاطلاع على الرابط: 2022/02/01 ، رابط الموقع:
https://www.almoajam.org/Encyclopedia/poet/0204.htm

[24] عبد القادر شارف، أسلوب النداء في شعر البحتري (مقال)، مجلة جسور المعرفة، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الجزائر، المجلد4، العدد1، ص: 37

[25] السفر إلى القلب، ص: 68

[26] المرجع نفسه، ص: 69 و 70